اربعة جدران وكتاب ...

بقلم جمال الاسود

[من ذكريات ليالي البكالوريا المترعة بالأمل]

كانت تستلقي إلى جانبي فوق العشب الندي الأخضر تحت الزيزفونة الكبيرة الوارفة ، وقد اسندت رأسي إلى صدرها الناهد الذي كانت تجيش فيه عواطف الشباب الجامحة إلى الثورة، فتهدئها انوثتها اللدنة الناعمة. لم تكن امواج الظلام قد تشابكت بعد لتؤلف ذاك البساط الاسود الحالك الذي يلتف به الكون عند كل مساء خشية مردة الليل وأشباحه المرعبة ، فما يزال الوقت يتأرجح بين نور وظلام والعالم يترنح بين ليل ونهار كأنما هو في حلم . ومع ذلك فالقمر قد ارتفع رمحاً في كبد السماء..

ولم يكن يشق ذاك الهدوء المخيم الدمث إلا صفير صرصور الحقل الحادّ الرفيع ، وخرير الجدول الصغير الذي كان ينبع من قرب السنديانة الهرمة الراسخة ثم لا يلبث ان يتلاشى بين شجيرات الورد الملتفة المتعانقة . ولئن كان ثمة ما يوحي الى النفس بان وراء هذا العالم عالماً اعمق ، وان خلف هذه الحقيقة حقيقة أبلج ، فهو صوت الناي الحنون الذي كان يرد خافتاً مع لنسمات الرقيقة وينسلّ برفق إلى النفس فيبعث فيها شعوراً ناعماً هومة الراحة والهدوء ، عميقاً عمق السرور واللذة .

وفجأة شعرت بان اصابع زميلتي تتوقف وهي التي كانت نساب على خدي حالمة مدغدغة ، وصدرها يرتفع وينخفض لى شكل غريب مصحوب بتنهدة سافرة متحسرة طويلة ...

فالتفت اليها وقلت : ما بك يا لمياء ؟! بم تفكرين ؟

قالت : افكر بامر هذا الشباب المتدفق الذي نفقده .. ننا نعيش بين اربعة جدران وصفحتي كتاب ، نهدر هذه الايام لرائعة من حياتنا في هذه الأسطر السوداء التي تحدثك عن لخطوط والدوائر والمثلثات .. وكأن الحياة خطوط ودوائر خط بحبر على ورق .. ثم استأنفت بصوت خافت :

– نعم .. إننا سجناء اربعة جدران بيض ومنضدة ... ننا نعيش في قوقعة .. قوقعة عتيقة جوفاء مشققة ، مثلنا في لك مثل نقف في بيضة .

فالت هذا مندفعة مجفلة : مجفلة لانها لم تكن ترغب ان تكلم بمثل هذه الصراحة .. لان المجتمع علّمها ان الصراحة ضعف ، مندفعة لانها ضاقت ذرعاً بهذا الصراع العنيف بين الكتاب الممل والشباب الجامح ..

وقفت منها موقف المتحيّر المتردد تجاه قضية يحسّ صداها في اعماق نفسه لكنه مضطر الى الانكار .. كنت شاباً اشعر بما تشعر، لكنني فضّلت الانكار لانني لم ارد ان اخرم فيها نار النقمة والنفور فقلت :

– « نعم يا لمياء – نحن نعيش بين اربعة جدران .. في قوقعة مفرغة .. ، كنقف في بيضة .. – لكن أرأيت الى قطار يقصد الى بلد معين .. ! قد يكون الطريق طويلاً .. وعراً خطراً .. لكنه يسير دون ان يلتفت الى الوراء ، قد يعترض طريقه نفق مظلم ضيّق .. لكنه يعبره دون تردد لانه سيقوده الى الهدف .. ولا بد لكل نفق مظلم من نهاية .. نحن في هذه الحياة كالقطار يا لمياء : اما البلد الذي نقصد اليه فقد يكون المجد كما اظن .. وها نحن قد بلغنا النفق فلا تجزعي إذا كان ضيّقاً مظلماً . اما « النفق » يا لمياء فما اظنه ناقماً الى هذا الحد الذي بلغته من النقمة لانه واثق كل الوثوق انه لا بد محطم في يوم من الايام جدران هذه البيضة الملساء التي تكمن خلفها الحياة الحرة اللامقيدة التي يصبو اليها .

قلت هذا وانا انظر اليها بعينين حادتين .. فوجدت انه ما زال يخامرها بعض الشك الممزوج بشيء من الاضطراب ..

قالت : « أمتأكد أنت اننا سنخرج من هذا النفق ؟ »

قلت : لا اشك في ذلك إذا تابعنا المسير فالطريق محدودة ولن تستعصي طريق ما على سير متواصل .

قالت : إنك شديد الطموح الى حدّ التهور ، وإنك لتنظر الى العظمة كما ينظر اليها الطفل الصغير الذي لا يقدر المسافات فيرفع رجله يريد ان يضعها على «السطح» مباشرة وهو في صحن الدار، وإن ثقتك بالمستقبل لعمياء عمى المحبين .. اما انا .. فما عرفته إلا بخيلاً يكاد يقتله الشح ، خائناً غداراً ينتهز الغفلات ليضرب بيده الفولاذية الصارمة ..

قلت : المستقبل يا لمياء هو ابن طيّع لحاضرنا الذي نعيشه ،

أما هذا الحاضر فكأني بقطعة جبس هشة بين يدي مثّال يكيفها كما يشاء ، ومصيرها رهين براعته .. فلنكن بارعين حذقة ليكون مستقبلنا زاهراً .

قالت : إن بعضهم يغايرك رأياً فيعتقد ان المستقبل ابن المجهول وليس ابن الحاضر .. وإنني لأخشى هذا المجهول .. أخشى قسوته التي لاتعرف الهوادة في هدم الخطط وتحطيم الآمال الشامخة ... أخشى أن نصبح كذاك النمل الذي شردته عواصف الشتاء الهوجاء .

قلت : تلك خرافة .. وما اكثر الخرافات على ألسن الناس . المجهول .. المجهول ليس له وجود يا لمياء ، لأننا نحن الذين نخلقه حينما نتيه في غياهب مفازات الضلال اللامتناهية . أما في عالم النور فلا مجهول هناك لأن كل شيء واضح ..

قالت : افتضمن لي النجاح .. إذن ؟؟

قلت : لا يا لمياء .. لكنني اعرف من يستطيع ذلك .

قالت بلهفة شديدة : من ؟

قلت : ثقتك بنفسك يا لمياء .. ومدى مقدرة هذه النفس على دعم تلك الثقة .

★

وهنا ألقت برأسها الصغير – والنسيم يداعب جدائلها الذهبية المتهدلة فتلمع تحت اشعة القمر الفضية الناصلة – على صدري متراخية مستسلمة .. وقد اطمأنت بعض الشيء إلى ان حياتها لن تستمر كذلك الى الابد .

ثم لم تلبث ان حركت يدها فازاحت جدائلها المتشابكة ورفعت رأسها متثاقلة .. ونظرت الي بعينين ذابلتين .. فلم اتمالك من ان اطبع على شفتيها قبلة طويلة حارة .. لم تكن لتنتهي لو لم تقطعها والدتي التي جاءت تهددني قائلة بصوتها الأجش « إرفع عن وجهك هذا الكتاب الثقيل .. ونم على السوا يا ولد .. فقد جاوزت الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل .. »

وجمجت في سريري فسقط الكتاب على الارض بجانب السرير .. واستسلمت لنوم عميق ..

وعندما استيقظت في الصباح كانت هرتنا السوداء بجانب السرير تداعب كتاب الهندسة ، كتاب الخطوط والدوائر .

حلب **جمال الاسود**

همسة .. في اذن اختي

[انت مخطئة يا اختي ... لن نقنع من مائدتنا برغيف خبز .. هل بلغنا مجدنا باستقلال سوريا؟]

أسرفتِ يا اختي !.. فلا لوم على من رام ثأرا !
عذبتِني .. ولو انصرفتِ عن الملامة .. كان احرى
لا .. لن استكين ، وبي دم يجري .. ومهما ازددت فقرا
خُلق الشباب من اللهيب .. فليت قلبي حال جمرا !
سأعيش في الحقد الجريء مكافحاً .. جهراً .. وسراً
حقدٌ أدلّله .. وأغذوه .. شرايينا .. وعمرا !
يهتز بي نحو الحياة الحرة .. السمحاء .. حرا
ويطيف بي في كل روض عامر : طيباً .. ونشرا
أرنو به نحو الشمال ، بمهجة كالنار حَرّى
فأرى « اللواء » على مراقيه يذلّ الطرفُ قسرا
ويدُ البغاء تشد في ابنائه .. ذلاً وقهرا
ويديرني نحو الجنوب ، فيستشيط معي .. ويشرى
بمشي .. ويدفعني أسجل ، في دمي ، مليون ذكري
ألقدس أضحت للذئاب تنوشها : ناباً وظفرا
والوادعون ، مع الصباح – فديتهم – يبكون ذعرا
من ثدي أمهم يمصّون الحليب الحلو .. مرا !
مأساتهم .. في كل قلب حرقة .. وأسىً تعرّى
مأساتهم .. في كل نفس .. غضبة حمراء .. بترا
سيعيدها الحقد الشريف .. كرامة بيضاء .. بِكرا

لله يا اختي ! لقد طلع الصباح اليعربي .. وطاب فجرا
رفت عصافير الشقائق .. واكتسى البستان زهرا
ومشى ، مع الغنمات ، راعيها .. يريد الجو .. قفرا
وأدار أرغنه الحبيب بنفحة كالصبح .. سحرا
يفتنّ في تلحينها .. وتكاد تبعث فيه سكرا !
هل تسمعين معي نداءات الشباب الحر تترى ؟!
والصرخة المثآر تهدر في الفضاء الرحب هدرا ؟!
في كل زاوية .. ومنعطف حشود تبتغي للحق نصرا
وغداً سنزحف واثقين .. وبأسنا يُملي ويُقرا .

الحسكة – سوريا **جميل حسن**